الأطفــال تحــت الظـــروف الصعبـــــة (الأطفـال في الأزمـات)

أ. أنـــــور وادي – علـــم النفـــس – غـــزة، فلسطيـــن

anwarwadi@hotmail.com

مقدمة: قد يواجه الأطفال ظروفاً صعبة وضاغطة من الخبرات المؤلمة، المصحوبة بالتوتر وفقر في الخدمات الأساسية و البيئة المحيطة، والمحيط البيئي يؤثر قي تشكيل سلوك الأطفال فالبيئة المضطربة تقود إلي سلوك مضطرب ، كما أنها تؤثر على الدور الذي يقومون به، فكلما كانت البيئة سليمة يسودها التعاون والمحبة والعلاقات الاجتماعية السليمة، كلما توفر الاطمئنان الذي ينعكس على نفسية الأطفال والسلوك الشخصي الإيجابي، في حين أن العنف والقوة والكراهية والضغط النفسي المستمر ينعكس سلبياً على سلوك الأطفال، ويؤثر سلبياً على نموهم المعرفي والاجتماعي والنفسي.

فالعنف وسوء المعاملة وكوارث الحروب أو الفقدان أو الموت لأحد الوالدين وغيرها من الأحداث، كل هذه المشكلات قد تؤدي إلى عدم الشعور بالأمن وزيادة الشعور بالعجز والإحباط لدى الأطفال والتي بالتالي تنعكس على علاقتهم بالآخرين، وعلى اتجاهاتهم نحو المجتمع، كما تؤثر على نظرتهم إلى أنفسهم والحياة والمستقبل.

وتواجه الأفراد والأسر والمجتمعات مواقف وفترات حاسمة تنطوي على شدة أو كرب أو أزمة، وما يستدعيه ذلك من ضغوط واضطرا بات ومشكلات، وتلك حقيقة من حقائق الوجود الإنساني. وتصبح القضية – إذن – ليست في أن توجد تلك المواقف أو الأزمات الضاغطة، وإنما فيما تحدثه من آثار أو عواقب أو مشكلات، وفي مهارات التعامل معها ومواجهتها، وفي الوقاية من تداعياتها (الببلاوي ، 2001م ،ص42).

وخلال السنوات المتعاقبة كثر الاهتمام بدراسة الضغوط النفسية وتأثيرها على الحياة وكثرت الدراسات والمؤلفات العلمية، وسنقوم خلال هذا الجزء من الدراسة بتعريف الضغط النفسي ؛ وسنعرض لبعض النماذج التي توضح العمليات النفسية الفسيولوجية المختلفة للفرد كرد فعل عندما يتعرض الفرد لموقف ضاغط، كذلك سنقوم بتعريف اضطراب ما بعد الصدمة عند الأطفال، وسنقوم بالتحدث عن المشكلات النفسية والاجتماعية لأبناء المعتقلين السياسيين، وكذلك عن الضغط النفسي وثقافة المجتمع كما يلي:-

▪ أولاً: الضغـط النفســي أو التــــأزم Stress.

• تعــريف الضغــط النفـــسي

إن حياة الإنسان لا تسمح دائماً له بالحصول على التوازن النفسي أو تحقيق الذات فكثيراً ما يتعرض لعوائق وصعوبات تستلزم منه مطالب تكيفيه وتوافقية قد تكون فوق احتماله، مما يؤدي إلي وقوعه تحت الضغط النفسي والـ تأزم.

وما زال مصطلح الضغط النفسي يتراوح في التعريف من مدرسة لأخرى، فقد عرف سيلي (Seyle1980) الضغط النفسي على أنه "الاستجابات الغير خاصة لأي احتياجات، وقد وضعوا الأخصائيين النفسيين تعريفاً للضغط النفسي على أنه عبارة عن مثير.

الضغوط مصطلح يستخدم للدلالة على نطاق واسع من حالات الإنسان الناشئة كرد فعل لتأثيرات مختلفة بالغة القوة......... وتعني الضغوط تلك الظروف المرتبة بالضبط والتوتر والشدة الناتجة عن المتطلبات التي تستلزم نوعاً من إعادة توافق عند الفرد وما ينتج عن ذلك من آثار جسمية ونفسية، وقد تنتج الضغوط كذلك من الصراع والإحباط والقلق(عثمان، 2001م، ص96).

بالرغم من استخدام الأطباء والمعالجين لمصطلح الضغط النفسي في القرن الماضي فان استخدام هذا المصطلح ظل خارج النطاق العلمي حتى العقد الثالث والرابع من هذا القرن، ويعد عالم الغدد الكندي سيلي Selye أول من استخدم هذا المصطلح في تفسيره لما أسماه"نموذج التوافق الفسيولوجي العام General Physiological Adaptation Pattern وبنهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الأبحاث التي تناولت ظاهرة الضغط النفسي في الزيادة ليس فقط في مجال علم وظائف الأعضاء Physiology بل أيضاً في مجال الطب الاجتماعي Social Medicine وعلم النفس(أبو طواحينه، 1999م، ص24).

وتعرف(راويه دسوقي) ضغوط الحياة بأنها مجموعة من التراكمات النفسية والبيئية والوراثية والمواقف الشخصية نتيجة للأزمات والتوترات والظروف الصحية أو القياسية الصعبة التي يصادفها الفرد، بل إنها قد تبقى وقتاً طويلاً إذا ما استمرت الظروف المثيرة لها، وتترك آثار نفسية سيئة على الفرد(دسوقي،1996م،ص46).

ويعرف ماثني(Matheny) الضغوطات بأنها هي مجموعة من الأحداث أو المواقف أو الأفكار التي تؤدي إلى التوتر، ويدركها الفرد من خلال عدم المقدرة والإمكانية لإنجاز المطالب المفروضة عليه لإنجازها(Matheny andothers,1993,pp133) .

وتعرف ممدوحة سلامة" الضغوط على أنها كل ما من شأنه أن يجبر الفرد على تغيير نمط قائم لحياته أو لجانب من جوانبها بحيث يتطلب منه ذلك أن يعيد أو يغير من توافقا ته السابقة، حيث تكون الضغوط أحداث

رئيسية مثل فقدان عزيز ...أو أحداث أقل ضغطاً مثل الضغوط الاقتصادية والأسرية والاجتماعية والتعليمية(سلامه،1991م،ص ص496،475).

وفي منتصف العقد السادس من هذا القرن، أصبحت أعراض الضغط النفسي مجالاً لاهتمام العديد من الدراسات والأبحاث التي لا تزال في زيادة مطردة حتى وقتنا هذا.

وبالرغم من التعريفات العديدة لمفهوم الضغط النفسي، فإن أكثرها شمولاً ذلك التعريف الذي يصف الضغط النفسي بأنه خلل في التفاعل بين المتطلبات البيئية من جهة، واحتياجات ومهارات وقدرات الفرد من جهة ثانية، ويتمثل هذا الخلل في بعض المظاهر الفسيولوجية والنفسية.

وقد وصف كل من لازاروس وكوهين (Lazarus and Cohen) ثلاث أنواع من الضغوط النفسية:

أ- التغيرات الكبرى: والتي تؤثر على مجموعة كبيرة من الأشخاص وهي ضغوط عامة على الجميع وخارج نطاق تحكم البشر مثل الكوارث الطبيعية، أو الكوارث من عمل الإنسان مثل الحروب ، والسجون، الطرد الجماعي، التفرقة العنصرية والعرقية.

ب- الكوارث الكبيرة: تلك الأحداث التي يمكن أن تؤثر على شخص واحد فقط أو أشخاص قلة ولكن عدد الناس الذين تأثروا من قوة الحدث يكون أقل، هذه الأحداث يمكن أن تكون خارج نطاق تحمل الطاقة البشرية مثل موت شخص عزيز، أو المرض الشديد، أو فقدان البيت والعمل.

ج- الضغوط اليومية الحياتية مثل التوقف عن التدخين، الترقية في العمل والمشاكل الزوجية(ثابت،2000م،ص 55).

وقد ينتج الضغط غضب وعدوان عند البعض، وعدم مبالاة واكتئاب عند البعض الآخر، ولم توضح الأبحاث لماذا أفراد الجنس الواحد يستجيبون بطرق مختلفة لنفس المثير، وربما يرجع ذلك الاختلاف إلى شخصية الفرد من ناحية، وإلى البيئة من ناحية أخرى(Malin and Birch,1998 pp 220,221).

ويعرف (Fritz,1961) الكارثة " أنها أحداث مفاجئة لا يمكن السيطرة عليها أو المخاطرة الناجمة عنها، سواء كانت هذه المخاطر قد وقعت بالفعل أو من المتوقع حدوثها، وهي أحداث مركزة من حيث المكان والزمان، ويواجه فيها المجتمع خطراً ماحقاً على حياة أفراده، وتخريباً أو تدميراً للبنية الأساسية للمجتمع، يؤدى إلى خلل في البنية الاجتماعية، ويحول دون أداء المجتمع لوظائفه الضرورية(عجوبه، 1994م،ص106).

إن الضغط النفسي هو موقف يسبب صراع داخلي، و الضغوطات ليست متشابهة عند كل الأفراد، ما يكون وسيلة ضاغطة على فرد ما، ليست بالضرورة أن يكون وسيلة ضاغطة على فرد أخر.

و الضغط النفسي له ردود فعل وهي:

- فسيولوجية: حيث يظهر على الجسم تغيرات كرد أو لستجابة لحالة الضغط هذه.
- سلوكية: حيث يظهر تغيرات في سلوك الفرد من أجل التعامل مع الضغوط.
- التوافق: حيث يظهر تغييرات كلية أو جزئية في السلوك الكلي للفرد.

وعموماً يمكن القول أن شخصاً ما لا يعاني من الضغوط النفسية ما لم يكن هناك مصدر لهذه الضغوط، واستجابات من جانب الفرد، وعلى ذلك فإن العناصر الرئيسية التي تشكل أي موقف ضاغط هي:

أ- مصادر الموقف الضاغط.

ب- الاستجابة لهذا الموقف الضاغط.

وبدون هذين العاملين مجتمعين لا يكون هناك مواقف ضاغطة، حيث أن مصادر الضغوط بمفردها لا تشكل ضغوطاً، كما أن صدور استجابة شخص معين لمواجهة هذه الضغوط هو الذي يجعلنا نقرر إن كان الشخص يعاني من الضغوط أم لا.

ثـــانيـــاً: نمـــاذج المشقـــة النفسيـــة ومواقـــف الشدة

هناك عدد من النماذج التي تشرح وتصف حالة الضغط التي يتعرض لها الأفراد، وسنقوم بتوضيح بعض هذه النماذج مثل النموذج الفسيولوجي والذي يتطرق إلى استجابة الجسم للضغط النفسي، والنموذج التفاعلي والذي يشرح العمليات التي تحدث وتتفاعل بين الفرد والضغط النفسي ، بالإضافة إلى تلخيص نماذج.

1- النمــوذج الفسيـولـوجي Physiological Mode l

يوضح هذا النموذج الاستجابة للضغط النفسي لدى الأفراد من الناحية الفسيولوجية، حيث أن التغيرات الفسيولوجية تكون متشابهة لدى جميع الأفراد، ولكنها ليست بالضرورة أن تكون متطابقة في جميع التغيرات الجسمية عندهم.

وقد أشار سيلي(1956) Seyle إلى ظهور ما يعرف بمفهوم أعراض التكيف العام General Adaptation Syndrome(GAS).حيث حدد ثلاث مراحل للاستجابة للضغوطات وهي :-

- مرحلة الاستجابة للإنذار Alarm Stage
- مرحلة المقاومة Resistance Stage
- مرحلة الانهاك Exhaustion Stage

أ. مرحلـة الاستجـابة للإنــذار Alarm Stage

وفي هذه المرحلة يظهر الجسم تغييرات فسيولوجية نتيجة نشاط الهيبوثلاموس Hypothalamus والذي يعمل على تنشيط الغدة الأدرينالية التي تساعد على استثارة إفراز هرمونين هما الأبنفرين Epinephrine والنورابينوفرين Norepinephrine مما يؤدي إلى حالة من التنشيط السمبثاوى مما يعمل على حدوث تغيرات جسمية كسرعة دقات القلب وزيادة ضغط الدم وتغيرات في لون الجلد......إلخ (Malin and Birch, 1998,p,225).

ب- مرحلـــة المقاومـــة Resistance Stage

وتحدث هذه المرحلة عندما يكون التعرض للضاغط متلازماً مع التكيف فتختفي التغييرات التي ظهرت في المرحلة الأولى على الجسم، وتظهر تغيرات أخرى تدل على التكيف(عثمان، 2001م ، ص 98) مع الموقف.

ويؤدي الضغط المزمن طويل الأمد إلى نقص تأثير جهاز المناعة Immune System، وكذلك إلي نقص في خلايا الدم White Blood Cellsوالتي تعتبر عنصراً أساسياً في جهاز المناعة. وهناك مشاكل صحية مرتبطة بالضغط النفسي تشمل على السرطان ونوبات القلب Heart Attacks وارتفاع ضغط الدم ....إلخ، بالإضافة إلى استنزاف جهاز المناعة الذي يترك الجسم عرضة إلى البكتريا والفيروس، ومن ثم التسبب بأمراض مختلفة يعاني منها الفرد (Malin and Birch, 1998,p,226).

ج-مرحلـة الإنهـــاك Exhaustion Stage

وهذه المرحلة تعقب مرحلة المقاومة ويستنفذ الجسم خلالها الطاقة الضرورية مما يؤدي إلى أمراض سيكوسوماتيه Psychosomatic Illnesses والتي يكون سببها الأساسي المشكلات النفسية.

وتعتبر هذه الصورة مؤلمة كاستجابة للضغوطات، ولكنها قابلة للتغير، وهي ليست حتمية، ومن الممكن أن يستعيد الجسم طبيعته أثناء المرحلة الأولى أو في بداية المرحلة الثانية.

2- النمـــوذج التفاعــلي Interactional Model

قدم هذا النموذج لازاروس (1976) ويعتمد على التقييم المعرفي لموقف

التهديد عند الفرد، ويرتبط بعوامل خارجية خاصة بالبيئة الاجتماعية والعوامل المتصلة بالموقف نفسه (Malin and Birch, 1998,p,227). ويعرف هذا النموذج الضغط على أنه ينشأ كنتيجة لوجود تناقض في احتياجات الفرد، مما يؤدي إلى تقيم التهديد وإدراكه في مرحلتين وهما:

- **المرحلة الأولى:** وهي الخاصة بتحديد ومعرفة الأحداث التي تسبب الضغط.
- **المرحلة الثانية:** وهي المرحلة التي يحدد فيها الفرد الطرق التي تسمح للفرد في التغلب على المشكلات التي تظهر نتيجة للموقف الضاغط.

لقد استخدم لازاروس مصطلح التقييم (Appraisal) والذي يقصد به التقييم الأولي والسريع للموقف من قبل الشخص، وهذا التقييم لا يتم بطريقة شعورية، بل أنه يتم بطريقة أتوماتيكية، وهكذا يرى لازاروس أن هذا التقييم يلعب دوراً هاماً في تحديد شكل ردود الفعل الأولي للضغط.

وهكذا يقدم لازاروس تفسيره للاختلافات في ردود أفعال البشر عندما يتعرض لحوادث متشابهة، ذلك أن الأمر يعتمد على طريقة تفسير الشخص للحدث فاختلاف التقييم من شخص إلى آخر يؤدي إلى اختلاف ردود الفعل، ومن ثم إلى اختلاف طرق التوافق لدى هؤلاء الأشخاص(أبو طواحينه،1999م،ص48).

وقد أكد لازاروس على أن ردود الفعل للضغوط يعتمد على التفسير والمقدرة الادراكية Perception of capability للفرد في الموقف الضاغط، كما يعتمد على الطرق التي تسمح للفرد على التغلب على الموقف الضاغط . ويعتقد لازاروس أن هذين الشكلين من أشكال التقييم يتفاعلان فيما بينهما (Malin and Birch, 1998,p,228).

ويفترض في هذه النظرية أن التعرض للصدمات لا يكفي وحده لشرح ظهور المشكلات السيكولوجية ولكن العوامل التالية تخدم بوصفها وسائط وظيفية بين التعرض للضغوط وعواقبه في الصحة العقلية؛ الطريقة التي يقيم بها الناس معنى الضواغط وأضرارها(تقييم أولي)، تقييمهم لمصادرهم الذاتية في مواجهة الأحداث الضاغطة (تقييم ثانوي)، والطرز الفعلية للتعامل مع المواقف الضاغطة. ويمكن كما سبق الإشارة أن تسمى الوسائط الاجتماعية لعملية ضاغطة معينة عوامل ضعف وعوامل وقاية تنزع إما إلى زيادة أو تأثير الضواغط على الصحة العقلية(بوناماكى ،1994م، ص240).

فان الضغوط يمكن أن تسبب مدى عريضاً من الاستجابات الفسيولوجية والانفعالية والسلوكية. ويعتقد أن هذه الاستجابات تتأثر عادة بعمليات معرفية. فالشخص الذي يواجه موقفاً ضاغطاً يقيم أولا المعنى والأهمية والجوانب المدمرة الممكنة(تقييم أولي) ثم يقيم مصادره لمواجهتها(تقييم ثانوي). وتؤدى هذه التقييمات إلى استراتيجيات يمكن أن تتفاوت في كفاءتها(عبد الوهاب وآخرون، 1994م، ص 263).

وهناك نماذج أخرى مرتبطة بالضغوط سنعرض بعضاً منها باختصار كما يلي:

3- نمـــوذج سبيلبـــرجـــــر

يربط (سبيلبرجر) بين الضغط وقلق الحالة State Anxiety، ويعتبر الضغط الناتج عن ضاغطاً مسبباً لحالة القلق، وهو قلق موضوعي أو موقفي يعتمد على الظروف الضاغطة.

وفي الإطار المرجعي للنموذج (نظرية) اهتم " سبيلبرجر" بتحديد طبيعة الظروف البيئية المحيطة والتي تكون ضاغطة ويميز بين حالات القلق الناتجة عنها، ويفسر العلاقات بينها وبين ميكانيزمات الدفاع التي تساعد على تجنب تلك النواحي الضاغطة(كبت-إنكار-إسقاط) وتستدعي سلوك التجنب.

ويميز سبيلبرجر بين مفهوم الضغط ومفهوم القلق، فالقلق عملية انفعالية تشير إلى تتابع الاستجابات المعرفية السلوكية التي تحدث كرد فعل لشكل ما من الضغوط.

كما يميز بين مفهوم الضغط ومفهوم التهديد من حيث أن الضغط يشير إلى الاختلافات في الظرف والأحوال البيئية التي تتسم بدرجة ما من الخطر الموضوعي ، أما كلمة تهديد فتشير إلى التقدير والتفسير الذاتي ، لوقف خاص على أنه خطير أو مخيف(عثمان،2001م،ص ص 99، 100).

أ- ضغط بيتـا : Beta Stress

ويشير إلى دلالة الموضوعات البيئية والأشخاص كما يدركها الفرد.

ب- ضغط ألفـا : Alpha Stress

ويشير إلى خصائص الموضوعات ودلالتها كما هي.

ويوضح موراى أن سلوك الفرد يرتبط بالنوع الأول ويؤكد على أن الفرد بخبرته يصل إلى ربط موضوعات معينة بحاجة بعينها ، ويطلق على هذا المفهوم تكامل الحاجة ، أما عندما يحدث التفاعل بين الموقف الحافز والضغط والحاجة الناشطة فهذا ما يعبر عنه بمفهوم ألفا (عثمان،2001م،ص ص102،100).

تعـقـيـب وتـعـلـيــق

وما يتضح من العرض السابق،أن هناك اختلاف في النماذج (النظريات) التي اهتمت بدراسة الضغط، فمنها من انطلق على أساس فسيولوجي أو نفسي أو اجتماعي.

فنجد سيلي قد اتخذ من استجابة الجسم الفسيولوجية أساساً يؤثر على الفرد عندما يقع تحت موقف ضاغط ، بينما نجد سبيلبرجر لتخذ من قلق الحالة وهو عامل نفسي يرتبط بالضغط ، أما موراي فنجده يعتبر الضغط صفة لموضوع بيئي، وبناء على ذلك، نجد اختلافاً في هذه النماذج فيما بينهم.

وقد نلاحظ أن افتراض هذه النماذج في الاستجابة السيكولوجية للضغوط بأنهاعالمية، كما أنها عجزت عن تقديم وصف دقيق للتفاعل بين النظريات الاجتماعية والسياسية والنفسية،أي عجز هذه النماذج(النظريات) عن تقديم تناول كل من الأبعاد الجمعية والفردية للنفس البشرية.

كما أنها تغفل عن المعايير الثقافية في الاستجابة للضغوط حيث أن العمليات السيكولوجية تتأثر بالسياق السياسي والاجتماعي، حيث لا يمكن تصور الاستجابات النفسية دون اعتبار متغيرات أخرى مثل القيم والمعايير والأيديولوجيات والأغراض السياسية الحياتية لكل من الفرد والمجتمع.

وذلك كما أكدت بوناماكي وهي باحثة فلندية من رواد البحث العلمي في مجال العنف السياسي وتأثيره على الصحة النفسية؛وهذا ما سوف نقوم بتوضيحه بصورة شاملة عند الحديث عن الثقافة كعامل وقاية من الإصابة بالصدمة النفسية.

- **ثانيــاً: اضطـراب مــا بعـد التعـرض للصدمـــة عنـد الأطفـــال.**

خلال السنوات المتعاقبة، تم تطوير واستخدام العديد من المفاهيم، لوصف النتائج التي تظهر بعد أن يمر الإنسان بلحظات عصيبة في حياته، ومن هذه المفاهيم ما اصطلح على تسميته بالصدمة Trauma والأعصبة الصدمية والاضطراب الناتج عن التعرض للصدمة Post Traumatic Stress Disorder وجميع هذه المفاهيم ترجع إلى التطور النظري الذي تأثر بالعديد من النظريات كنظرية التحليل النفسي، ونظرية علم النفس المعرفي، بالإضافة إلى الدراسات والأبحاث التي تناولت ظاهرة الضغط النفسي بالدراسة والتحليل.

ومن هذا المنطلق نرى من الأهمية أن نعرف الصدمة النفسية كما يلي:

أ- تعريف الصدمة النفسية

تطلق الصدمة النفسية على نوع الخبرة المفرطة للفرد، بحيث لا يستطيع

احتمالها فيتداعى لها بالأعراض المرضية، ويأتي تأثيرها الضار من الفجائية التي تحدث أثنائها الصدمة، والتي بالتالي تعيق من قدرة الطفل الذي تعرض لحدث صادم من السيطرة على الموقف والمعالجة السليمة للآثار الناتجة عن هذا الحدث.

هناك اتفاق كبير حول تعريف الصدمة بأنها خبر تشير إلى حدث خارجي(خلافاً للاستثارة الداخلية عند الفرد) شديد ومفاجئ يغمر الطفل، ويحدث اضطراباً في قدرته على مواجهة الصدمة في الوقت الذي حدثت فيه أو التحكم فيها وفي أثارها، ويحدد الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للاضطرابات النفسية (DSM-IV-TR,2000) أن عوامل الضغط الصدمية ينبغي أن تكون خارج حدود الخبرة العادية، وأن تكون من الشدة إلى درجة تستدعي أعراض الضيق والاضطراب عند معظم الناس(الببلاوي، 2000م، ص28).

وتعرف الصدمة أيضاً على أنها تعرض الفرد لحدث صادم، أو إن كان بواسطة التهديد الجسدي أو النفسي أو التعرض الفعلي للموت أو الإصابة للفرد نفسه أو الآخرين، ويشمل ذلك الخوف الشديد والشعور بالعجز والرعب. ونلاحظ أن الأطفال يظهرون أعراضاً أخرى بدلاً من ذلك، كاللعب الغير منظم، أو السلوك الأهتياجي.

ومن خلال هذه التعريفات يمكننا أن نحدد عنصرين أساسيين مهمين وهما:

- **العنصــــر الأول**

وهو أن هناك اختلافاً بين الصدمة Trauma والضغط النفسي Stress فالصدمة شديدة ومفاجئة، ويترتب عليها ضغط نفسي لمعظم الأطفال الذين تعرضوا لها. كما أن الصدمة لا يمكن تجنبها أو الهروب منها Inescapability، كما أنه لا يمكن التنبوء بحدوثها Unpredictability، ولا بالفترة الزمنية التي تستغرقها Uncertain Duration، حيث أنها تمتد لمدى الحياة(أبو طواحينه،1999م، ص31).

- **العنصـــــر الثـــاني**

وهو أن ردود أفعال هؤلاء الأطفال تكون متشابهة في أي مكان وزمان، وفي جميع الثقافات المختلفة وهذا لا يعني عدم وجود اختلافات بسيطة ترجع إلى العمر وطبيعة الصدمة النفسية.

ب-اضطــــراب مـــا بعــد التعـــرض للصـــدمة

منذ أن أصدرت"الرابطة الأمريكية للطب النفسي الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث للاضطرابات النفسية 1980 (DSM-111) ، والثالث المعدل 1987 (DSM-111-R) ، والرابع 1994 (DSM-1V) ، والرابع المعدل 2000 (DSM-1V-R) . فقد شهد هذا الميدان جهوداً كثيرة.

حيث تم تصنيف اضطراب ما بعد التعرض للصدمة ضمن الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل ويشتمل هذا المعيار التشخيصي لهذا الاضطراب على الأتي:

- حدث خارج مدى الخبرة العادية ، وهي خبرة يمكن أن تكون مزعجة لأي فرد مثل: تهديد خطر لحياة المرء، تهديد شديد أو ضرر لأحد الأطفال أو أقرباء أو أصدقاء حميمين،رؤية شخص مصاب إصابة بالغة أو مقتول كنتاج لحادث أو عنف جسدي. ويستجيب المرء للحدث الصادم بالخوف الشديد والعجز والرعب.
- استعادة خبرة الحدث الصادم مرة على الأقل كالتالي:

1. استعادة متكررة للحدث(يكون هناك- في حالة الأطفال- لعب متكرر يتم خلاله التعبير عن الحدث أو الصدمة).
2. أحلام مزعجه متكررة عن الحدث.
3. مشاعر أو أسلوب فجائي كما لو كان الحدث قائماً بالفعل، بما في ذلك استعاده إسترجاعية.. ضيق نفس شديد عند
4. التعرض لأحداث ترمز أو تماثل جانباً من الحدث الصادم، بما في ذلك ذكرى سنوية للصدمة.

- استمرار تجنب المنبهات أو المثيرات التي أحاطت بالصدمة، أو تبلد لاستجابات عامة(لم تكن حاله قائمه من قبل)، وذلك من خلال ثلاثة معايير على الأقل من التالي:

1. جهود لتجنب الأفكار أو المشاعر المصاحبة للصدمة.
2. جهود لتجنب الأنشطة أو المواقف التي تستثير استعادة الصدمة.
3. عدم القدرة على تذكر جانب مهم من الصدمة(فقدان ذاكرة نفسي).
4. تناقص الاهتمام بأنشطة مهمة(وفي حالة الأطفال الصغار يتمثل ذلك في فقدان مهارات مكتسبة حديثاً مثل التدريب على عادات النظافة، أو المهارات اللغوية).
5. مشاعر من الانفصال أو الاغتراب عن الآخرين.
6. وجود قيود على المشاعر (عدم المقدرة على تكوين مشاعر الحب).
7. إحساس بمستقبل قصير الأمد (عدم توقع الاضطلاع بحياة مهنية، أو الزواج، أو إنجاب أطفال، أو حياة طويلة.

- أن الفترة الزمنية المطلوبة لاستمرار ظهور العرض الثاني والثالث والرابع هي فترة شهر على الأقل.

إن اضطراب ما بعد التعرض للصدمة، هو مجموعة أعراض تحدث بعد أن يتعرض الشخص لضغوط نفسية شديدة لم يعهدها من قبل. ومن المحتمل أن الأفراد الذين تعرضوا إلى الصدمة النفسية أن يظهروا جميع الأعراض السابقة أو بعضها ففي بعض الحالات قد تمر شهور أو سنوات لظهور هذه الأعراض بعد التعرض لاستثارة أو ضغوط.(التأثيرات بعيدة المدى على النمو النفسي والاجتماعي والمعرفي للأطفال المصدومين).

ونستطيع القول أن الدليل التشخيصي والإحـصائي الرابـع المعـدل للاضطرابات النفسية قد حدد عدداً من الأعراض الرئيسة للأطفال الـذين تعرضوا للصدمة منها على سبيل المثال استعادة متكررة للحدث الـصادم وقد يتم ذلك في شكل استرجاعات أو ذكريات 'اقتحامية ومتكررة للحدث. بما فيها الصور الذهنية والأفكار والإدراكات. ويحدث ذلك لدى الأطفـال في شكل لعب متكرر(اللعب الصد مي)؛ حيث تعبـر الطفـل فيـه عـن موضوعات أو جوانب للصدمة.

ويتأكد من نتائج عديدة من الدراسات والخبرات الإكلينيكية، أن الأطفال يعانون- غالباً – بدرجة أكبر بكثير مما يعتقد الوالدان الكبار. بل إن تأثير الصدمة قد ينتقل بشكل غير مباشر إلى أطفال آخرين مثل الجيران ورفاق المدرسة والأتراب، وحيث تنشأ عندهم كذلك اضطرابات تالية للصدمة........ بل يذهب باحثون آخرون إلى أن الخبرات الصدمية التي يتعرض لها الأطفال، وما ينجم عنها من مشكلات و اضطرابات عندهم، قد تنطوي على آثار تمتد عبر الأجيال Transgeneratianal Effects؛ فتنتقل كمشكلات وآثار سلبية من جيل إلى آخر Intergenerational Transmissionفي المجتمع(الببلاوي،2000م،ص 32).

وتتأثر ردود فعل الأطفال للصدمة بعدد من المتغيرات التي أبرزتها بعض البحوث كما يلي:

1- العوامل الاستعدادية أو الاستهداف للتأثير بالصدمة، أو الحاجات الخاصة عند الطفل.
2- الانفصال عن الأسرة.
3- المستوى الارتقائي للطفل.
4- ردود فعل الوالدين وأعضاء الأسرة للصدمة.

5- درجة التهديد التي يخبرها الطفل لحياته أو لحياة شخص محبوب عنده
6- معنى الصدمة في حياة الطفل.
7- مدى التعرض للصدمة.
8- وجود اضطرابات في الأسرة قبل التعرض للصدمة.
9-درجة الترابط أو المساندة الاجتماعية(الببلاوي،2000م،ص ص32، 36)

▪ **ثالثـاً: المشكـلات النفسيـة والاجتماعيـة لأبنـاء المعتقلين السياسييـن .**

تعتبر تجربة التعذيب والاعتقال من التجارب المؤلمة في حياة الإنسان حيث يتعرض إلى أشكال عديدة من التعذيب سواء كانت اجتماعية أو نفسية أو جسدية، قد تؤدي إلى ظهور العديد من المشاكل النفسية والاجتماعية وتكون أحياناً من الشدة حيث تؤثر على الفرد بشكل خاص وعلى علاقته الاجتماعية مع الآخرين بشكل عام وخاصة على الناس المقربين منه ولا سيما الأبناء.

إن عواقب الاعتقال لا تقتصر على المعتقل فقط بل تمتد لتشمل أسرة المعتقل وما يترتب عليها من ضغوط اقتصادية، اجتماعية، ونفسية، الأسرة التي تضم أطفال يتموا على حياة ذويهم وحرموا من حياة أسرية سليمة وصحية، وربما تسربوا من التعليم، وزرع فيهم الغضب والانكسار أو الغضب والعنف والشك في الأب أو الشك في السلطة وبالتالي يتشوه وعيهم في أهم مراحل تكوينهم النفسي والمعنوي. وربما ولدت هذه الأسرة عناصر ساخطة ومشوهة فكريا يمكن أن تجدد الجريمة و تحرك موتور العنف من جديد(القباج وآخرون،2002م، ص ص 12،15).

وقد تمثل العودة إلى الوطن - في بعض الأحيان- عوامل ضاغطة شأنها شأن الأسر نفسه، حيث يمكن أن يعاني الأسير عقب عودته إلى الوطن من تبلد انفعالي، نمطية في السلوك، عزلة وانسحاب. كما أن مرحلة مشاعر السعادة وحسن الحال التي تعقب التحرر من الأسر، قد تتحول إلى مرحلة من الاستثارة أو التنبيه الزائد(إسماعيل، 1996م، ص15).

إن الناجون من التعذيب ليس هم فقط الذين يعانون من أثاره، بل أطفالهم يعانون مباشرة من خلال خبراتهم مع العنف والفقدان Loss، وأيضاً من خلال خبرات آبائهم وردود فعلهم (Montgomery , 1993 , p5).

ولعل أهم المشكلات التي يمكن أن يواجهها أبناء المعتقلين تتحدد في الآتي:

➢ **المشكــلات النفسيــــة**

إن الأسرة هي الإطار الصحيح الذي يشعر فيه كل فرد من أفرادها بذاته وحبه للآخرين وحب الآخرين له،كما أن الأسرة تلعب دورا بارزا في نمو الذات وتحافظ على قوتها إذا توافر لها بناء محدد ، كما يتوافر للفرد من خلال الأسرة الشعور بالأمن والحب الذي يسمح لعاطفته بالنمو السليم بالإضافة إلى الحاجة إلى التقدير الاجتماعي الذي يتمتع به الفرد والذي له صلة وثيقة بتأكيد الأمن النفسي لديه (أحمد وآخرون،2001م،ص41).

وحرمان الفرد من الاحتياجات النفسية السابقة يشعره بالعزلة والاغتراب والنبذ واحتقار الذات والحقد على مجتمعه ويكون الفرد أكثر عرض للانحراف من غيره .

ولعل المشكلات النفسية التي تعاني منها أسر النزلاء تكمن في فقدان الثقة بالنفس لأفراد غالبية هذه الأسر، وقد يرجع هذا إلى أن المركز الاجتماعي للأسرة يرتبط بالثقة بالنفس واحترام الذات، وتأسيسا على ذلك يشعر أفراد هذه الأسرة بفداحة الثمن الذي يدفعونه نتيجة اعتقال الوالدين أو أحدهم، بالإضافة إلى ما قد ينتاب هذه الأسر من اضطراب في العلاقات التي قد تؤدي إلى الفشل في تكوين العلاقات الاجتماعية السليمة (سلام وآخرون،2002م، ص25).

أما عن أطفال المعتقلين فهم يتعرضون إلى تجارب تبلغ قسوتها حدا بعيدا عن مخيلة الكبار، وذلك نتيجة لتضاعف إحساسهم بالحرمان من الأب، من الجو العائلي والعلاقة الأسرية، من راحة بال الأم التي غالبا ما تقضى وقتها إما قلقا أو عملا، ومن الإحساس بالأمان. هذا إلى جانب إمكانية تأزم الأسرة ماديا تحت غياب عائل رئيسي وتحت النفقات التي تتحملها الأسرة في سبيل المعتقل. كما يمكن أن يشعر الطفل بالنبذ الاجتماعي سواء من الجيران أو المعارف أو حتى من العائلة الكبيرة خاصة عائلة الأم التي يمكن أن يساورها الشعور أنه بدون الأولاد لكانت الزوجة أكثر حرية بدلا من الانتظار المفتوح لغائب ربما يكون غير مسؤول أو مظلوم.

كل هذه العوامل تشكل ضغوط على أطفال المعتقلين مما يسبب لهم مشاكل نفسية غالبا ما تؤدى إلى الإنكسار والضعف أو الغضب والتمرد. ونذكر في هذا الشأن تسرب بعض أطفال المعتقلين من التعليم وذلك نتيجة لعدة أسباب منها اقتصادية ومنها نفسية أو فقدان الرعاية والاهتمام بالأطفال. تجد الأسرة نفسها في قلب مشكلة تغيب الأب فتشعر بصغر حجم المشكلات الأخرى مثل التسرب من التعليم وغيرها. النتيجة في النهاية إننا نواجه بجيل محاصرا من جوانب عدة مع شعور عام بالضياع وانعدام الأمل في الغد (القباج وآخرون، 2002م، ص ص 24،25).

ولقد اعتمدت بعض الدراسات التي أجريت حول تأثير الواقع أن تأثير التجارب القاسية والأحداث الصدمية على الأطفال قد يفوق تأثيرها على الكبار، ويرجع ذلك إلى نقص نمو مهارات مواجهة الضغوط Coping Skills وآليات الدفاع بوصفها أساليب للتوافق مع المواقف الضاغطة وعواقبها، كما يرجع -كذلك- إلى طبيعة الطفولة ذاتها.

فعملية الفصل الفجائية التي تكون بسبب اعتقال الأب أو الأم أو الاثنين معاً أو بسبب اختفائهم ، يؤدي إلى عذاب الأطفال ، فعندما يصدم الأولياء بالسجن أو التعذيب قد يهدد جدياً نمو شخصية هؤلاء الأطفال ورفاهيتهم في المستقبل (ياعكبسون ونلسن ،2000م،ص83).

فالأطفال ينتحلون قصص الآباء ويخلقون استيهامات حول الأسرار المخجلة للعائلة، لا تتوافق البتة مع الواقع. فالإحساس بالخجل قد تم نقله من غير وعي إلى الأطفال فبعضهم لا يرغبون في الكشف عن غضبهم أمام الأولياء؛ ويعجز الآباء عن أن يقيموا علاقة مباشرة مع أبنائهم كما يعجزون عن الحديث معهم رغم حبهم لهم..... وقد كان الأطفال أنفسهم عرضة للعنف السياسي وكانوا شهود عيان على الإيقاف العنيف والشرس لأحد واليهم أو الاثنين معاً(ياعكبسون ونيلسن، 2000م، ص ص81،82).

وتشير البحوث في التأثيرات البعيدة المدى للخبرات الصدمية في معسكرات الاعتقال إلى أنه كلما كان سن الطفل عند تعرضه للضغوط اصغر،كلما زاد احتمال أن تؤدي إلى عواقب وخيمة. وقد افترض أن مستوى الارتقاء المعرفي للطفل يشكل عاملاً حاسماً في تحديد تأثير الخبرات الضاغطة. فمثلا، وفي ضوء غياب فهم واضح لمفهوم الموت، فان الاضطرابات السيكولوجية يكون وقوعها أكثر احتمالاً بين الأطفال اليتامى، إلا أنه في تقدير راتر، فانه بينما يتعادل شكل استجابات الأطفال للأحداث الضاغطة مع تقدمهم في السن وارتقائهم، فانه لا يبدو أن حساسيتهم للضغوط تتأثر زيادة أو نقصاً بصورة ملحوظة عند سن معين(بوناماكي،1994م، ص238).

في حين أن الفقدان تتبعه ردود فعل الأسى والحزن، بينما يتسبب القلق على الآخرين في نشأة أعراض قلق الانفصال عند الأطفال........ وتتباين المشكلات والاضطرابات وأعراضها عند الأطفال الذين يشاهدوا الوالدين أو أحداهما أو أعضاء من الأسرة وهم يقتلون أو يعذبون، وهذه المشكلات والاضطرابات وما تأخذه من مظاهر وأعراض تمتد إلى الجوانب الادراكية والمعرفية والخيالية والانفعالية والسلوكية والاجتماعية من حياة الطفل (الببلاوي ، 2000م، ص ص 30،29).

ولقد اهتمت بعض الدراسات التي أجرت حول تأثير التعرض لخبرة الأسرة ببحث ردود هذه الخبرة على أسرة الأسير ذاتها. وتشير إحدى هذه الدراسات إلى أن هذه التأثيرات على الأسرة قد تكون عميقة ضخمة مستمرة أو بسيطة عابرة. ومع ذلك ، فان الزوجات عادة ما ينتابهن اضطرابات نفسية وأعراض من الاضطراب الفسيولوجي النفسي. كما يمكن للأطفال أن يعانوا من قلق الانفصال واضطرا بات النوم(إسماعيل،1996م، ص36).

وقد اتجهت دراسات أخرى منحنى أخر حيث دراستها لعينة من 53 شخصاً تتراوح أعمارهم بين أربع سنوات وعشرين سنه ينتمون إلى آباء كانوا أسرى في المسكرات الأسر اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تبين أن مشكلاتهم الوجدانية والسلوكية والتعليمية مرتبطة بشكل واضح بما يعانيه الآباء من اضطرابات تعود إلى خبرة الوقوع في الأسر . ومن جهة أخرى ، فقد اعتبر هؤلاء الأبناء ما يعانيه الآباء من قصور وجداني أنه نوع من مكافئات عدم الوجود أو الغياب. إذ كان بعض الآباء موجوداً جسدياً إلا أنه غائب سيكولوجيا (المرجع السابق ، 1996م ، ص37).

➢ المشكلات الاجتماعيـة

وهي المشكلات التي تتضمن سوء العلاقات داخل الأسرة والمجتمع الخارجي .. فالأسرة تسعي لمساعدة الأفراد على اكتساب المعلومات والمهارات واكتساب العلاقات الشخصية فيما بينهم، والمشاركة الفعالة في النظم الاجتماعية والاقتصادية الموجودة في المجتمع حيث إنها المؤثرة في عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال، وأن نمط الرعاية الوالدية له أهمية في نمو الطفل خاصة في السنوات الأولي من حياته.

والأسرة قد لا يمكن أن تؤدي ذلك.. والأب الذي يمثل السلطة الضابطة غائب عنها، ونتيجة لغياب هذه السلطة الضابطة فإن هذه المشكلات تتمثل في عدم تقدير كل فرد في الأسرة للمسئوليات الجديدة التي ظهرت ، ومنها الكثير من الخلافات بين الأبناء ، وانشغال كل منهم بالمشكلات الفرعية دون التفكير في مستقبل الأسرة وعدم قدرة الزوجة في أغلب الأحيان على القيام بدور الأب، مما قد يؤثر على طبيعة العلاقات داخل الأسرة بالإضافة إلى ظروف العمل الذي قد تلجا إليه الزوجة بعد سجن العائل مما قد يفقدها – إلى حد كبير – السيطرة على الأبناء(القباج وآخرون،2002، ص ص30،32).

لا شك أن ظاهرة الغياب الأبوي أصبحت من المشكلات الشائعة في المجتمعات الحديثة، وبصرف النظر عن أسباب هذا الغياب هذا الغياب، فكل الأمور تدعونا إلى أن نعتقد أن الأطفال الذين يتم تنشئتهم في أسر تتكون من والد واحد توجد عليهم مخاطرة. فغياب الأب غالباً ما تكون له آثار مباشرة على الطفل وكذلك آثار غير مباشرة منقولة إليه عن طريق الأم التي تكون في الغالب مضغوطة عاطفياً واقتصاديا وغالباً ما تكون معزولة اجتماعيا(علام،1993م،ص9).

كما قد تلجا بعض الزوجات إلى طلب الطلاق ، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التفكك الأسرى ، كما يذهب البعض إلى القول إنه نتيجة لما ظهر على حياة الأسرة من تغيرات ، فإنه يتزيد الصعاب أمامها بالنسبة للأدوار الخاصة بالزوج الغائب ، كما أن عدم وضوح أدوار أعضاء الأسرة لاسيما دور الزوجة فإن ذلك يعد من العوامل المساعدة على ظهور هذه المشكلات ، وبالإضافة إلى سوء العلاقات داخل الأسرة.

و الأسرة التي تضم زوجة تدفعها ضغوط الحياة إلى شغل دور الأب والأم معا والتي يمكن أن تتعرض لمحاولات ابتزاز من قبل أطراف مختلفة: سلطات، جيران، زملاء عمل، أو قيادات جماعة أو أخرى، والنظر إليها ككائن ضعيف تغيب سندها لظروف ما وبالتالي فهي هشة أمام أي ضغوط (القباج وآخرون،2002م،ص ص 12، 26).

فالأسرة التي تضم زوجة تدفعها ضغوط الحياة إلى شغل دور الأب و ألام معا و ما تتعرض له من محاولات ابتزاز من قبل أطراف المجتمع المختلفة و النظر إليها ككائن ضعيف تغيب سندها لظرف ما ومن ثم فهي هشة أمام أي ضغوط ، والأسرة التي تضم أطفالا بعيدين عن حياة ذويهم وحرموا من حياة أسرية سليمة و صحية وربما تسربوا من التعليم وتولد فيهم الغضب و الانكسار والعنف والشك في الأب والسلطة ؛ هي أسرة يتشوه وعى أطفالها في أهم مراحل تكوينهم النفسي والمعنوي(سلام وآخرون،2002م، ص2) .

وتعتبر المشكلات الاقتصادية من العوامل التي قد تؤدي إلى انهيار الأسرة وتفككها نظرا لما يترتب عليها من مشاكل أخرى منها أمراض سوء التغذية والضعف العام وانتشار الانحرافات الشاذة وجرائم الأحداث وارتفاع معدل الوفيات ونقص قدرات الفرد على العمل والإنتاج .

تعـليــق وتعـقيــب

وكما قلنا سابقاً فان التأثير لا يتعلق بالضرورة بالشخص الذي تم اعتقاله بل يتأثر الأطفال في العائلة أيضاً، وقد يكونوا أكثر المتضررين على الرغم من عدم فهمهم الكامل لمعنى الفقدان والموت، لذا تظهر الآثار لديهم على شكل سلوكيات وآثار نفسية وجسمية مرضية كالتبول اللاإرادي، والحركة الزائدة، الخوف من الأشياء، والعدوان تجاه الآخرين وتدني التحصيل الدراسي.

وهذا يعني أن غياب أحد الوالدين يعتبر عامل أساسي للاختلاط بالمجتمع، كما له أثار سلبية على النمو النفسي والاجتماعي للطفل، وقدرته على إقامة علاقات اجتماعية تفاعلية كافية؛ هذا ما أكدته الكثير من الدراسات.

ولكن علينا أن نوضح أن هذه المشاكل النفسية والاجتماعية الناتجة عن اعتقال أحد الوالدين وخاصة الأب، هي مشكلات نتيجة تعرضهم لمواقف غير طبيعية، وأن البعض منهم من الممكن أن يطور اضطرابات، وأن هذه المشكلات تطرأ وفقاً للتغيرات التي تحدث في المجتمع. وليس وفقاً لتغيرات شخصية لهؤلاء الأفراد، كذلك فان الكثير منهم استمروا في الحياة وكان لديهم توافق نفسي واجتماعي سليم.

▪ رابعـاً: الضـغـط النـفسـي وثـقافـة المجتمـع

تلعب الثقافة بشقيها المادي والمعنوي دوراً هاماً في تفسير الحوادث الصادمة التي يخبرها الفرد في حياته، فالإنسان يفسر الفقدان والأشكال الأخرى من الحوادث تفسيراً يتسق مع ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه؛ كما يتسق هذا التفسير مع القيم والمعايير الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذي يعيش فيه الفرد، هذا بالإضافة إلى أساليب التوافق التي يستخدمها الفرد والتي ثبتت فاعليتها في المجتمع الذي يعيش فيه.

وسنركز في هذا الجزء من الدراسة على العوامل الثقافية التي يستطيع الفرد المعرض للضغوط النفسية من خلالها استخدامها كأساليب حماية من الإصابة بالأمراض الناتجة عن الضغوط:

➢ الثقافـة كعامل حماية من الإصابة بالصدمة النفسية

إن معظم الكتابات في ارتقاء الطفل واضطرابا ته النفسية وعدم توافقه تتجاهل وتهمل أهمية المجتمع بما يشتمل علية من عمليات وتغيرات اجتماعية بوصفها السياق التي تحدث فيه الضغوط ومن ثم الاستجابة السيكولوجية. فالحوادث الصادمة لا تحدث في فراغ، وضحايا هذه الحوادث يعيشون ضمن ظروف اجتماعية وحضارية خاصة بهم تميزهم عن غيرهم من الأمم الأخرى.

وعلى ذلك فان هذه المتغيرات الاجتماعية والحضارية تلعب دوراً هاماً في تحديد شدة وخطورة نتائج تلك الحوادث. وأكثر من ذلك، فان هذه

المتغيرات هي التي تؤدى أحيانا إلى حدوث مثل هذه الحوادث الصادمة، فالقمع السياسي والكوارث الناتجة عن التقدم التكنولوجي ، هي حوادث من صنع الإنسان، والتي تؤدى إلى الشعور بالعجز والإحباط واليأس (Summerfield,1995,p.17).

إن المهتمين والأخصائيين في هذا المجال يمكنهم فهم الآثار الناتجة عن الحوادث الصادمة ، ولتوضيح أهمية الدور الذي تلعبه الثقافة في التخفيف من حدتها ، يعقد ديرك سمرفيلد (Summerfield) مقارنة بين الجنود الأمريكيين العائدين من حرب فيتنام والجنود البريطانيين العائدين من حرب جزر الفوكلاندز ، ففي الوقت الذي استقبل فيه الشعب الأمريكي جنوده استقبالاً سيئاً حيث تعرضوا للوم مما جعلهم يشعرون بالعار وبتأنيب الضمير ، وبتقدير متدني للذات ، استقبل الشعب البريطاني جنوده استقبالاً شعبياً حافلاً للجهد المشرف الذي بذلوه ، ويوضح ذلك أهمية المناخ الاجتماعي والحضاري في تحديد مدى شدة الاضطرابات النفسية الناتجة عن التعرض لضغوطات نفسية قاسية (Summerfield , 1995, p. 29).

ويجمع المختصون في المجال النفسي والاجتماعي على أن الوضع بالنسبة لحالات الفقدان في المجتمعات الإسلامية والعربية، أنها تختلف عنه بالمقارنة مع حالات الفقدان في المجتمعات الغربية، والتي تتمثل في المواقف التي قد يعانى منها الناس على المستوى الفردي من أعراض نفسية، ولكنهم يظهرون قدرة إنسانية خارقة للتحمل على المستوى الجمعي ، كما أن فكرة الإيمان بالقضاء والقدر، وتقديم الدعم الاجتماعي من قبل الأقارب والجيران والذي له التأثير الإيجابي الكبير في التخفيف من حدة الضغوط والصدمات النفسية.

وفيما يخص الأطفال ، فان عدداً متزايداً من البحوث بدأ يمهد الطريق لفهم الطرق التي يمكن أن تؤثر بها أحداث الحياة في الصحة العقلية للطفل

ففي بحوث راتر Rutter ، يقدم مفهوم عوامل الوقاية Protective في مقابل عوامل الضعف Vulnerability ويشير النوع الأول إلى خصائص حياة الطفل التي يمكنها وقاية صحته العقلية في مواجهة الأحداث الضاغطة، بينما يشير النوع الثاني إلى العوامل التي تجعل الطفل أقل صموداً في مواجهة الضغوط (الببلاوي،2000م ، ص ص35،36).

ومن مجموعة عوامل الوقاية التي كانت موضع دراسة جارميزى Garmezy :

- جوانب الشخصية واستقلاليتها، تقدير أو اعتبار الذات، والتوجه الاجتماعي الإيجابي.
- التماسك العائلي والدفء والتحرر من الخلاف.
- توفر نظم المساندة الخارجية التي تشجع وتدعم جهود الطفل في محاولته التواؤم(بوناماكي، 1994م،ص 237).

لكل شعب ثقافته التي تشمل عادته وتقاليده، قيمه ومعتقداته، ولغته وأساطيره وبالرغم أن الشعب هو الذي يبلور هذه الثقافة ويخترع كثيراً من جوانبها إلا أن كثيراً منها يمارسها الفرد دون أن يدركها، وفي أحيان كثيرة تساهم الثقافة في الإصابة بالأمراض كما أنها تساهم في الحماية منها، باعتبارها الوسيلة التي تزود الناس بالسلوك وطرق التفكير، بالإضافة إلى أنها المنظار التي يتعلم من خلالها الفرد ويدرك منها العالم من حوله.

وأثناء التعرض للصدمات تساهم الثقافة في حماية وتوفير الأمن لأفرادها من خلال الثقة المتبادلة والروابط الاجتماعية القوية، لمنع كثير من المشكلات النفسية والاجتماعية التي تؤثر على نمو وتقدم الفرد والمجتمع.

إن الثقافة من خلال الروابط الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد والجماعات توفر لأفرادها الضمان النفسي والاجتماعي والتي تتبلور من خلال الدين والنظم الاجتماعية السائدة بينهم والتي تساعد الفرد في السيطرة على مشاعره بحيث تنظم سلوكه، وتربطه بالمعاناة الجماعية على أساس أن الجماعة مصدر من مصادر الحماية لقدرتها على تشكيل السلوك المرغوب فيه.

إن القصص التراثية والطقوس والشعائر الدينية والعادات التي يتمتع بها كل مجتمع هي عوامل حماية لتوفير الدعم والاستمرارية في التماسك عند حدوث المصائب، حيث تعمل على الاستقرار النفسي والاجتماعي.

➢ الدعـم الاجتمـاعي

إن الوجود الإنساني لا يتشكل فقط من خلال العوامل الو راثية ، بل إن للبيئة دوراً هاماً في ذلك، فالثقافة هي التي تزود الناس بالأنماط السلوكية وطرق التفكير، ويعني هذا أن الثقافة هي المنظار الذي يطل الإنسان من خلالها على البيئة المحيطة به، والذي من خلاله يتعلم الإنسان كيفية التعايش مع البيئة، وهكذا تلعب الثقافة دوراً هاماً في تشكيل شخصية الفرد وسلوكه، وعلى الرغم من عدم وعينا بمعظم هذه الأبعاد التي يتم استدماجها خلال عملية التنشئة الاجتماعية، ومن ثم يكون لها دور هام في تشكيل استجابة الفرد عندما يتعرض لضغوط غير متوقعة، فالمتغيرات الثقافية هي التي تحدد كيفية تأثير الحدث الصادم على إحساس الفرد بهويته، كما تحدد ماهية الاضطرابات النفسية التي قد تنتج عن التعرض لمثل هذه الخبرات (Summerfield, 1995,p 27).

وقد وجد أن العلاقات الشخصية الطيبة والمساندة الاجتماعية تنزع إلى تدعيم تأثير الأحداث الضاغطة في الحياة لدى الراشدين وبخاصة لدى النساء، ولكنا نعرف القليل عن تأثيرات هذه العوامل على الأطفال، وتشير الدراسات الإسرائيلية إلى استجابات الأطفال لخبرات الحرب ولفقدان الوالدين تؤكد أن التوافق السوي للطفل يرجع أساساً إلى تأثير العائلة بوصفها جماعة متعاونة ومسئولة تؤدى وظائفها بكفاءة، كما تؤكد على أهمية الرفاق في التماسك الاجتماعي القوي والصحة النفسية للوالدين وبخاصة الأم(المرجع السابق، ص ص239،238)

وقد أوردت دراسات أخرى ظاهرة هامة ، تتلخص في أن الأمهات لهن دور في تحديد كيفية مواجهة الأطفال لموقف غياب الآباء في الأسر. إذ عندما تكون الأمهات قادرات على أداء وظائفهن خلال الغياب المطول للآباء ، فان الأطفال يميلون لمواجهة الموقف بصورة سوية (إسماعيل ، 1996م ،ص 37).

وتشير بعض الدراسات إلى أن الأولاد أكثر حساسية للضغوط من البنات. ويبدو أن من أسباب ذلك أن الوالدين ينزعان إلى تقديم قدر من المساعدة للولد أقل مما يقدمانه للبنت(بوناماكى،1994م، ص 238).

وتمثل التنشئة الاجتماعية إحدى أهم الوسائل التي تؤدى إلى استدماج المعايير والقيم التي تدفع الفرد إلى السلوك ومن ثم في تشكيل الاستجابة للأحداث المفاجئة الشديدة، وأيضاً تفسيرها وإيجاد الحلول المناسبة في علاجها باعتبارها وسيلة تفاعل بين الفرد الضحية والبيئة المحيطة التي يعيش فيها.

إن التقدم التكنولوجي يستطيع أن ينزل الأذى ويوقع الضرر في الشعوب عن طريق تسخير ما يملكه من تقنيات مدمرة لا يملكها الآخرين، والتي أدت إلي أعمال وحشية أثرت على معظم أفراده، وأدت إلى خبرات صادمة ومعاناة صعبة من الممكن أن تشمل على جميع نواح الحياة المختلفة. ونتيجة التعرض لهذه الخبرات الصادمة يعانى الكثير من أثار نفسية وفسيولوجية أدت إلى أعراض نفسية منها: اضطراب في النوم، خوف وقلق، ضعف في التركيز، تغير في المزاج، وتذكر الحدث الصادم .. الخ.

إن الأعمال العدوانية التي يقوم بها المعتدي من قتل وقصف وإغلاق ، يهدف بالدرجة الأولى إلى السيطرة وجعل أفراد هذا المجتمع عاجز يشعر بالعزلة وضعف تقدير الذات من أجل فرض الأمر الواقع عليه وتمرير المؤامرات دون مقاومة.

إن الأحداث القاسية التي تقع بين أفراد المجتمع الذين يحملون عادات

وقيم استدمجوها عبر سنوات طويلة بحيث شكلت هويتهم وخبراتهم الثقافية لتكون عامل حماية ووقاية لهم من القمع، وكذلك مكنتهم من التغلب على هذه الصعوبات ليس فقط من خلال المساندة والنظام الاجتماعي الداعم للتخفيف من شدة الخبرات الصادمة، بل أيضاً من خلال المساندة وتوحيد القوى للدفاع عن الوطن ومقدسا ته والذي ما زال يلعب دوراً نفسياً قوياً في حماية الأفراد وخاصة الأطفال الذين يواجهون هذا العنف.

وقد أشارت العديد من الدراسات التي تناولت موضوع الضغط النفسي والصحة Stress And Health كدراسة مولر Mueller ودراسة سارا سون وسارا سون Sarason and Sarason إلى أن هناك علاقة عكسية بين الدعم الاجتماعي والأمراض والمشاكل الناتجة عن التعرض لحوادث صادمة....... أن الدعم المقدم من الآخرين يعمل على الوقاية من الإصابة والاضطرابات والأعراض المرضية ، بغض النظر عن حجم وعدد الحوادث الصادمة التي يتعرض لها الإنسان . وأشكال الدعم الاجتماعي عديدة ، حيث وجدت بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع . كالدراسة التي قام بها فلانيري (Flanerry1990) عن الدعم الاجتماعي والصدمة النفسية، أن أنماط الدعم الاجتماعي يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط ؛ وذلك كالتالي:

1- الدعم العقلي المعرفي Cognitive Support كتقديم النصائح والإرشادات والمعلومات التي تساعد على التفسير وتوضيح الظاهرة.

2-الموافقة أو التصديق الاجتماعي Social Sanctioning كمواقف الجماعة على أنماط معينة من السلوك أو معارضتها.

3-المساعدة المادية Material Help كالدعم المالي.

4-الدعم العاطفي Emotional Support وذلك بتقديم النصح والإرشاد، والمؤازرة العاطفية، التي من شأنها تخفيف الحدث الصادم.

5-مرافقة ومعاشرة الآخرين Companionship أو المصادقة الحميمة؛ ذلك أن القرب من الأصدقاء المفضلين لدى الشخص يزوده بأشكال عديدة من الدعم الاجتماعي والعاطفي. هذا ويرى هوبفول وستيفنز (1990) Hobfoll أنه بالرغم من أهمية الروابط والعلاقات الاجتماعية للوجود الإنساني فإنها قد تؤدى إلى نتائج سلبية في بعض الأحيان(أبو طواحينه، 1999م، ص56).

أما عن دور الأسرة الممتدة في توافق الأطفال فترى موريس أن الأسرة الممتدة كفلت الإحساس بالأمن العاطفي والمادي للأطفال. كما قررت الأمهات سلوك أقل تمزقاً بين مثل هؤلاء الأطفال. ففي هذه الأسر يتحمل الأجداد والأعمام أو الأخوال دور الأب، كما أن غيابه يلاحظ على نحو أقل وضوحاً في هذه الأسر كما أن الأم تكون تحت ضغط أقل(علام، 1993م،ص79).